الصناعة الحربية وبناء الأساطيل

* من العلوم التى نوه القرآن الكريم بخطرها وأشاد بقيمة المهارة فيها ، الصناعات الحربية وجملة الفنون التى تحتاج إليها الأمة فى الدفاع عن حقوقها ووجودها . ولقد جعل القرآن العناية بالصناعة الحربية آية على صدق الإيمان وحسن الجهاد ، قال تعالى :

﴿وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومَنافِعُ للنَّاسِ ولِيَعْلمَ اللَّهُ من يَنْصُرُهُ ورسُلَهُ بالغيبِ إنَّ اللَّهَ قويٌّ عزيزٌ﴾

[الحديد : ٢٥]

أى وخلقنا الحديد لتكون منه أسلحة القتال القوية التى تردع المعتدى وتقهره ، وفيه منافع للناس مثل مجال التنمية الاقتصادية والصناعية ، ﴿وليعلم الله من ينصره ورسُلَهُ بالغيب﴾ : أى إنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم ، وفى ختم الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين (قويٌّ عزيزٌ) : إشارة إلى أن الله يحب لعباده القوة والعزة ، وأن كل ما يوفر ذلك نظريًا وتطبيقيًا هو من وسائل التقرب إليه ومن دلائل تقواه جل شأنه .

• ولقد أثنى الله على عدد من أنبيائه الكرام وعباده الصالحين فذكر تفوقهم فى علوم الصناعة وجهودهم فى تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه ، فقال جل شأنه يصف داود :

﴿وألَنَّا له الحديدَ ، أنِ اعْملْ سَابغاتٍ وقدِّرْ فى السَّرْدِ﴾

[سبأ : ١٠ - ١١]

وإلانة الحديد هى المهارة فى إيجاد شتى الآلات منه ، والوصول بصناعاته إلى حد الإتقان دون إعياء أو قصور وذلك لحسن الخبرة وطول الدربة . وقد أمر الله داود «بتقدير السرد» ، أى كلفه بإحكام النسج للدروع السوابغ التى ينتجها حتى تخرج فى أعلى مستوى مستطاع ، وفى موضع آخر يصف داود بنوعين من العبادة والعلم : أولهما طول الذكر والتسبيح ، والآخر إجادة الصناعة الحربية . قال تعالى :

﴿وسَخَّرْنَا مع داودَ الجبَالَ يُسَبِّحنَ والطَّيْرَ وكُنَّا فَاعِلِينَ ، وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فهلْ أنتُمْ شَاكِرونَ﴾

[الأنبياء ٧٩ ، ٨٠]

• وعباد الله الصالحون ، أثبت القرآن صلاحهم وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة وخبرة عميقة بشئونها ، فهذا ذو القرنين يقول للذين منوه بالمكافأة إذا بنى لهم سدًا يحميهم من أعدائهم : ﴿مَا مَكَّنِّى فِيه رَبِّى خَيْرٌ ، فأعِينُونِى بقوةٍ أجْعَلْ بينكُمْ وبينهُمْ رَدْمًا﴾

[الكهف : ٩٥]

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع ، فيحول منطقة عمله إلى مصانع يصهر فيها النحاس وتغلى المواقد ويقطع الحديد وتمهد الأرض وتسوى جوانب الجبل ويؤدى الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذى يحمى الضعاف ويصون الحق ويعلى شأن الإيمان :

﴿آتونى زُبَرَ الحديدِ حَتى إذَا سَاوَى بين الصَّدفَين قال انْفُخُوا ، حَتى إذا جعلَهُ نارًا قال آتونى أُفْرِغْ عليه قِطْرًا . فما اسْطاعُوا أن يَظْهروهُ وما اسْتطاعُوا له نَقْبًا﴾

[الكهف : ٩٦:٩٧]

• وقد أفتى العلماء باتفاق أن إقامة الحرف والصناعات فريضة على المجتمع كله يأثم بتركها ، وعلى الأفراد الصالحين لهذه الفنون بمواهبهم وقدراتهم أن يجوِّدوا فيها ، ويخدموا أمتهم ورسالتهم بها .

وصحيح أن العرب طلعوا على العالم بالإسلام وكان الناس فقراء إلى العلم به ، لكن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من الناس أنواع الخبرة التى لم تهدهم إليها مطالب الصحراء ومجامع البادية .

وقد مهروا فيما وقفوا عليه ، واستغلوه فى نشر الإسلام وحرب أعدائه ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أنهم صنعوا السفن الحربية وأتقنوا قيادة الأساطيل وحرب البحار .. يقول ابن خلدون :

«كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم

صارت أمم العجم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرًا من هؤلاء وأنشئوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأسسوا دارًا لصناعة الآلات البحرية بتونس ، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا»

• ومن أعظم الأمجاد التى يسجلها التاريخ الحربى للعسكرية الإسلامية أن الأساطيل الإسلامية استطاعت أن تقهر أعظم الأساطيل البحرية فى زمنها (أسطول بيزنطة) وأن تزيل عن البحر الأبيض المتوسط تلك الصفة التى لصقت به طويلاً وهى (بحر الروم) حتى أصبح يستحق أن يدعى (بحر المسلمين) ، يقول ابن خلدون :

«إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم ، وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس ، والرومان والصقالبة والفرنجة جميعًا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولا تحاول الدنو (الاقتراب) من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته» (ضرى بفتح الضاد وكسر الراء عليه: أى لزمه أو أولع به) .

• ولو تأملنا التوجيه القرآنى حول الحديد فسوف نراه يوحى بالطريق الذى على الأمة أن تسلكه لكى يكون لديها صناعة حربية حقيقية تنتج لها الأسلحة القوية التى تحقق الاستراتيجية الإسلامية فى الردع وإخافة الأعداء من عاقبة عدوانهم ، فنستطيع استخلاص المبادئ التالية للوصول إلى تلك الغاية :

١ – إقامة البنيان الاقتصادى على «الصناعة» أساسًا ، لأن الزراعة وحدها – كما هو معروف لدى رجال الاقتصاد – لا تستطيع تحقيق التنمية الاقتصادية أو بناء قوة الأمة وتقدمها .

٢ – إقامة «الصناعة الثقيلة» وعدم الاكتفاء أو الوقوف عند حدود الصناعة الخفيفة ، لأن أسلحة القتال كالمدافع والدبابات والطائرات والصواريخ والسفن الحربية لاتنتجها إلا «الصناعة الثقيلة» .

٣ – إقامة «صناعة الحديد والصلب» التى هى الأساس الذى تقوم عليه «الصناعة الثقيلة» .

ذلك هو المدخل الصحيح لبناء القوة الحقيقية فى السلاح والمعدات ، ونستطيع أن نستوحى معالم هذه القوة من الآية الكريمة حول الحديد :

(أ) فهو أساس القوة الحربية فى مجال الحرب ﴿فيه بأس شديد﴾

(ب) وهو أساس التنمية الاقتصادية وتقدم الأمة عامة ﴿ومنافع للناس﴾ .

* وكما عنى الإسلام بأمر الصناعة الحربية ، فإنه عنى أيضًا بالإنتاج الحربى الذى تخرجه المصانع الحربية ، فحث المسلمين على المحافظة على الأسلحة وعلى العناية بها وملاحظة صيانتها ونظافتها ، حتى تكون صالحة دائمًا للعمل على أعلى مستوى من الكفاية .

فالمؤمن الحق يقوم بهذا العمل وفاء بالأمانة التى فى عنقه والتى يأمره دينه أن يؤديها وأن يصونها :

١ – فالسلاح .. يعد من «أدوات القوة» التى أمر الله بإعدادها لإرهاب العدو .

٢ – والسلاح يعد أيضا «من أدوات الجهاد فى سبيل الله وهو الوظيفة الشريفة التى كرمه الله بأن اختاره لها ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ .

٣ – وهو يحس بعواقب إهمال هذا الواجب ، وبخطر الغفلة عن أسلحته وصيانتها والمحافظة عليها كما أخبر الله تعالى فى قوله : ﴿وَدَّ الَّذينَ كَفروا لو تَغْفُلُونَ عن أسْلحتكُمْ وأمْتعَتكُمْ فَيميلُون عليكم مَيْلةً واحِدةً﴾

[النساء : ١٠٢]

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة ، فقد كان يناول ابنته فاطمة سيفه ويقول :

«اغسلى عن هذا دمه يابنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم»

وناولها على بن أبى طالب سيفه وقال : «وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم» .

• والجدير بالذكر أن من المبادئ المعروفة فى الاستراتيجية العسكرية أن تنظيم الجيوش وتسليحها ، وأساليب قتالها واستراتيجيتها تعتمد أولاً وقبل كل شىء على مستوى تطور الصناعة وطرق المواصلات والتقدم العلمى والتقنى (التكنولوجى) .

ويعرف الاستراتيجيون جميعًا قيمة الحديد والصلب وأثرهما البالغ على الاستراتيجية العسكرية ، فلقد تأثرت الاستراتيجية تأثرًا بالغًا بإنشاء السكك الحديدية على نطاق واسع ، إذ أدى ذلك إلى زيادة كبيرة فى حجم النقل وإلى تسهيل مهمة نقل القوات العسكرية ، وأصبح فى الإمكان حشد الجيوش فى ميادين القتال بسرعة وكثافة ، كما زادت قدرة القيادات على إجراء المناورات الاستراتيجية[1] بالقوات .

وبفضل الحديد والصلب والتطور المستمر فى صناعاتهما تطورت صناعة الأسلحة ، ولم تؤد هذه التطورات إلى حل المشكلات التكتيكية فحسب بل أدت إلى حل المشكلات الاستراتيجية ومشكلات إدارة الحرب عامة.

---

(١) يطلق هذا اللفظ على عملية تحريك القوات فى المعركة من مكان إلى مكان آخر بقصد تهيئة ظروف أفضل لصالح المعركة .. والمناورة بالقوات تسمى «مناورة استراتيجية» إذا تمت على مستوى عال وبقوات كبيرة وعلى مسافات أو مساحات واسعة ، وتسمى «مناورة تكتيكية» إذا تمت على نطاق محلى ومحدود من حيث القوة والمسافة ..الخ .